الجندي الصغير

للكاتب الفرنسي جحدي موباسان

بقلم الأديب السيد محمد العزاوي

كان إذا ما فرغ الجنديان الشابان من عملهما يوم الأحد انطلقا فى سبيلهما ...

فكانا يمرّجان إلى يمين ، من بعد الثكنات ، فيركضان خلال « كوبفوا » فكأنهما مسرعان إلى تمرين . فإذا ما خلفا البناء وراءهما ترفقا فى السير ، ناهجين تلك الطريق الغبراء العارية التى تفضى إلى « بيزونس »

كانا نحيفين قصيرى القامة ، يدخلان فى سترات طويلة مترهلة ، تغطى أكمامها أيديهما ؛ ويقلقهما طول السراويل الحمراء، فيضطرهما أن يشدا أرجلهما جهد المستطاع فى كل خطو سريع . ثم لا يكاد المرء يستبين تحت قبعتيهما من وجهيهما شيئاً . فإن أفلح فثم وجهان من وجوه آل بريتانيا غائرا الخدود ، ناتئا العظام ، ركبت بأعلاها عينان تنمان عن دعة النفس وطهارة القلب ، وبراءة الطوية

كانا قليلاً ما يتحادثان أثناء السير ، بل يمضيان قدماً تشغل ذهنيهما معاً فكرة واحدة حلت منهما محل الحديث. إذ قد اكتشفا موضعاً من الأرض على كثب من غابة « لى شامبيوز » الصغيرة ، تذكرهما بإقليمهما الذى درجا منه وترعرعا فيه فهما لا يشعران بلذة الراحة إلا فى أعطاف ذلك الموضع وبين ربوعه .

وكنت تراهما دائماً يحسران قبعتيهما الثقيلتين عن رأسيهما وينفضان العرق عن حواجبهما إذا ما الشجر الوارف أظلهما عند مفترق الطرق المفضية إلى كولومبس وشاتو

وكانا يتلبثان على جسر بيزونس دقيقتين أو ثلاثاً يطالعان منه « السين » ، مرتفقين سياج الجسر أو يحدقان فى مجرى « أرجنتوى » العظيم ، حيث تلوح الزوارق الجميلة بأجنحتها البيضاء ، وتدلف أمامهما خفافاً سراعاً . فلربما استعادا من ذكريات بحر « بريتانيا » وثغر « فانس » القريب إلى الوطن وادكرا صيد السمك فى عرض « موربيهان » إلى البحر الفسيح ، وبعد أن يجوزا نهر السين يمضيان ليبتاعا قوت يومهما . وكان لا يتجاوز قطعة من لحم الخنزير يشتريانها بأربعة دوانق ، ثم ما يكفى ذاك الإدام من نبيذ وخبز يضمانه فى منديليهما ، حتى إذا ما ابتعدا رق الخطو وبدأ الحديث

وهناك كان يمتد بظاهر القرية سهل ما حل غير ذى ذرع ، تتناثر هنا وهناك منه أدغال تفضى إلى غابة صغيرة تشبه أختاً لها فى « كارماريفان » . فإذا ما تقدم بهما السير حف بطريقهما نبات القمح والقرطم ، ثم يختفى النباتان فى خضرة ما ينبت فى المرج الفسيح ، وإذ ذاك يقول «جان كردرن» لصاحبه : « لوك لى جانيدك » : « إن ذلك ليشبه « بلونيفون » تماماً »

— نعم ، إنه ليشبهها تماماً

ثم يسيران جنباً إلى جنب ، تهب على ذهنيهما المشوقين ذكريات الوطن المبهمة ، ويملأ نفسيهما الظامئتين تصاوير صافية واضحة كتلك التى تبتاعها من السوق بدانق . . . لكأنى بهما يصوران مزقة من حقل ، وسياجاً ، وكديداً حزوناً لم يشققها محراث ؛ يكتنفها جميعاً مفترق طرق وصليب من الجرانيت

وكثيراً ما تريثا لدى حجر فاصل بين حقلين يتأملانه ، ففيه شبه قوى بحجارة « الكنيفان »

وكان « لوك لى جانيدك » يقتطع لنفسه عسلوجاً من عساليج البندق اللدنة ، إذا ما وصل إلى أقرب الأدغال إليه ، ثم يشرع فى نزع لحائه فى هينة وشرود، مفكراً فى فلاحى الوطن ؛ بينا « كردرن » يحمل الطعام

ولربما ينطق « لوك » باسم من حين لآخر ، أو يشير إلى حادث من الصبا فى كلمات قلائل كانت تكفى لأن تغرقهما فى تأمل عميق ، وحينذاك يمتلك مشاعرهما ذكر الوطن العزيز البعيد ؛ فيطغى حتى يجنهما فى أحشائه فيرسل إليهما الوطن خلال المرج أصواته المألوفة ، وأرياحه المعروفة ، ومناظره الحبيبة . ويملأ عليهم الجو بريحه المضمخ الساحر ، رائحة المروج الخضر يحملها نسيم البحر . فلم يعد أحد من الصديقين يشم بعد رائحة السمادالتى تفوح من أرض الضواحى بل ينشق ريح الوطن المزهر يخالط ملوحة البحر فى نسيم المحيط وتلك الأجنحة الرشيقة التى كانت تلوح فى البحر خلال المرج الفسيح ! لقد كانا يحسبانها أجنحة لزوارق تتهادى على صدر المحيط لتتصيد . فتتراءى خلال المروج المنبسطة فى ساحل الوطن العزيز

وحينئذ يسير « لوك » وزميله « جان » على مهل وهدوء . يهتلك صدريهما سعادة وحزن ، تجنهما كآبة بالغة وحزن نفاذ كذلك الذى يعتور حيواناً سجيناً لدى الذكرى

وإذ يفرغ « لوك » من أمر المسلوج يكونان قد شارفا ركن الغابة الذى يفطران فيه كل يوم أحد. وهناك يجدان لبنتين خبآهما تحت عشب جاف فى المرة السابقة ، فيوقدان ناراً صغيرة ويشويان اللحم على طرف « السنجة » الرفيع

فبعد أن يملآ بطنيهما ويأتيا على خبزهما وخمرهما يضطجعان جنباً إلى جنب ، ويرسلان الطرف يجوب الأفق البعيد . . . لا يتحادثان بل يداعبان الكرى نصباً ، بينما تمتد أرجلهما الحمراء فى وهن وتراخ ، ويلمع جلد قبعتيهما وأزرار سترتيهما النحاسية فى وهج الشمس الحامية فتخطف أبصار البلابل الحائمة حولها .

وتبدأ عيناهما — عند الظهر — تدوران فى محاجرها صوب قرية « بيزونس » فقد كان موعد تلك الفتاة التى ترعى بقرتها . فقد كانت تمر بهما كل أحد فى طريقها إلى الحظيرة كيما تحلب البقرة الوحيدة التى ترعى الكلأ والأعشاب ··· فى حقل ضيق قريب من الغاب

وسرعان ما يبصران بتلك الروح البشرية الوحيدة فى هذا المكان، فيثلج صدريهما مرأى الدلو التى تحمل، إذ تمكس عليه الشمس أشعتها الحامية .. ولم يتحادثا فى شأنها مرة فقد كان السرور يغمر قلبيهما الفتيين حين مرآها ،ولا يدرى أحدهما لماذا ..

كانت ممشوقة القد ... قوية البنية ... حمراء الشعر ... قد لوحتها شمس الأيام الصائفة . . .

فتاة صريحة من أرباض باريس

فى ذات أحد قالت لها حين رأتهما يجلسان فى نفس المكان :

— طاب يومكما ! هل تأتيان إلى هنا دائماً ؟

وكان «لوك لى جانيدك» أجرأ من زميله فقال:

« نعم ، إنا ننشد الراحة هنا »

كان هذا كل ما حدث . ولكنها حين رأتهما فى الأحد التالى ضحكت ضحك فتاة طيبة تستريح إلى خجلهما ثم قالت « ماذا تفعلان ؟ أفترقبان العشب ينمو ؟ ! »

فابتسم لوك بروح غريب وقال : « ربما »

فقالت : حسن ! إنه لا ينمو سريعاً !

فأجاب وهو لا يزال يضحك « إنه لكذلك ! »

ومضت ، ولكنها حين عادت تحمل قعب اللبن تلبثت أمامهما برهة وقالت :

— ألا ترغبان فى جرعة ؟ لسوف تذكركما بالوطن ...

حقاً لقد أصابت، وذلك بغريزة إنسانة من نفس جنسهما ، ربما كانت نازحة مثلهما عن الوطن . لقد حدست فأصابت، فوضعت إصبعها على الجرح الدامى. وتحرك الرجلان فى وقت معاً ، فصبت قليلاً من اللبن فى زجاجة النبيذ بغير جهد أو عناء . وشرب «لوك» أولاً فى رشفات قصار ، وكان ينظر الزجاجة كل رشفة خشية أن يجور على حظ الزميل ، ثم ناول الزجاجة جان . وظلت واقفة أمامهما واضعة يديها على فخذيها ، ودلوها عند قدميها ، مسرورة لما قدمت لهما من غبطة وسرور . وأخيراً مضت فى سبيلها وهى تقول :

— طاب يومكما ، وإلى اللقاء فى الأحد المقبل

فنظرا قواماً طويلاً ، ورأساً جميلاً يبتعد عنهما رويداً رويداً حتى اختفى فى خضرة زاهية ...

وحينما غادرا الثكنات فى الأحد التالى قال جان: « هلا اشترينا لها شيئاً جميلاً يعجبها ؟ » وأخذتهما حيرة شديدة فيما يشتريان . أى شىء يجمل بهما أن يشترياه لفتاة المرعى ؟ لقد فضل « لوك » بعضاً من لحم الخنزير ، ولكن جان فضل «الحلوى» لأنه كان مغرماً بها. وقد نفذت فكرته فاشتريا بدانقين حلواء حمراء وأخرى بيضاء .

أفطرا اليوم فى سرعة، مأخوذين بحس غريب. ورآها جان أولاً فصاح « ها هى ذى قادمة ! »

— نعم ها هى ذى قادمة !

وضحكت من بعيد حين رأتهما، ثم صاحت بهما: « كيف حال كل شىء لديكما ؟ »

فأجابا فى صوت معاً « وكيف الحال لديك ؟ »

وطفقت تتحدث ... تتحدث عن أشياء تافهة يطيب لهما السماع إليها ... عن الجو والمحصول ، ثم عن عملها ...

وقد خجلا أن يهباها حلواهما ، بينما الحلوى تذوب فى جيب جان . واستجمع «لوك» شجاعة وقال:

— لقد ابتعنا شيئاً .

— ما هو ؟

فأخرج جان من جيبه ورقة مفضضة لامعة ، وتضرج وجهه بحمرة الحياء والخجل . وشرعت تأكل قطع الحلوى ، فتلوكها فى شدقها . فتحدث القطع الصغيرة نتوءا رشيقاً. وسر الجنديان الجالسان أمامها يتأملانها . بينا تتجاوب فى قلبيهما مشاعر جمة .

وراحت لتحلب بقرتها ؛ فلما أن عادت أعطت كلاً منهما قسطه من اللبن .

ولقد فكرا فى أمرها أثناء الأسبوع كثيراً ، وتحدثا عنها مراراً ؛ وفى الأحد التالى جلست إليهما لحظة لتحدثهما حديثاً أطول وأمتع . وجلس ثلاثتهم جنباً إلى جنب يتذاكرون كل أحاديث الصبا فيستعيد ذكرياته الجميلة محتجزاً ركبتيه بين يديه ، مسرحاً طرفه فى المرج الفسيح ، متحدثاً عن قريته التى درج منها . . . وكانت البقرة ترتعى العشب بعيداً ، فلما رأت صاحبتها تبطىء فى القدوم رفعت رأسها الضخم — بمنخاريه اللزجين — ثم جأرت بصوتها تدعوها .

وسرعان ما قبلت الفتاة دعوتهما إلى بعض الطعام وبعض النبيذ . وكثيراً ما كانت تحمل لهما الخوخ فى جعابها فقد كان الموسم موسم الخوخ والبرقوق وكان وجودها ينعش روحى الجنديين البريتانيين . فكانا يثرثران كما يبغم زوج من الطيور

وفى يوم من أيام الثلاثاء طلب «لوك لى جانيدك» إذناً بالتغيب ، وهذا أمر لم يأته من قبل . ثم عاد للثكنة فى العاشرة مساء . . . وأقلق هذا العمل بال جان . وحاول أن يرتئى سبباً لغياب صديقه

وطلب « لوك لى جانيدك » إذناً آخر بعض ساعات من يوم الجمعة التالى بعد أن اقترض عشرة دوانق من زميل له فى عنبر النوم .

وحينما انطلقا إلى مكانهما المختار فى يوم الأحد كان سلوك « لوك » غريباً إلى حد بعيد ، فهو قلق مأخوذ .

ولم يكن جان ليفهم من الأمر شيئاً ، ولكن كان يحس بحدث قادم ، وإن لم يستطع تحديده تماماً ... ولم يتحادثا طوال الطريق ، ولاحين جلسا فى مكانهما الذى أبادا عشبه من الجلوس . وطفقا يفطران فى بطء شديد فقد كان كلاهما لا يحس الجوع ولا يجد العطش .

وأشرقت عليهما الفتاة ، فظلا يرقبانها ، وهى تتقدم نحوهما ، كدأبهما كل أحد . ولما أن دانتهما قفز « لوك » لإلقاها . وأسرع نحوها فوضعت فمها على العشب ثم عانقته وطفقت تلثمه فى حرارة ولهفة ، متجاهلة جان . إنها لم تره بل لم تشعر بوجوده معهما ... وهناك جلس جان التعس مذهولاً أيما ذهول . . . ذهل حتى لم يعد يستطيع إدراك ما يرى . فقد دار برأسه إعصار ، وانفجر فى قلبه شريان ، ولكنه مع ذلك لم يك يفهم ما يرى ... والآن جلست الفتاة إلى « لوك » وطفقا يتحادثان ولم ينظر إليهما جان . فقد استطاع أن يفهم لم تغيب صديقه مرتين فى الأسبوع المنصرم . وكان يستشعر لذلك ألم الجرح الدامى ، وكأن بضلوعه جرحاً بليغاً ، وإن نصل الخيانة يقطّع ألياف قلبه الدقيق

وقام لوك وفتاته كى ينقلا البقرة إلى مكان نضير وأتبعهما جان بصره فرآهما يسيران جنباً إلى جنب ، وكانت سراويل زميله الحمراء أوضح ما فى الطريق . وكان « لوك » هو الذى تناول المطرقة فدق الوتد فى شقة أخرى من الأرض المعشبة ... وانحنت الفتاة تحلب بقرتها ، بينما لوك يربت على ظهر البقرة الأملس بيد متلطفة حانية . وتركا القعب واتجها صوب الغاب . ولم يرجان من بعد دخولهما الغاب إلا حائطاً عظيماً من ورق الشجر وسوقها قد قام بينه وبينهما سداً منيعاً . وأحس جان بالاضطراب يحتويه فى أحشائه . فلو أنه رام القيام لانبطح على الأرض لا يستطيع حراكاً . والآن يجلس معتدلاً تثبته الدهشة ، وتذهله الحيرة ... حقاً لقد كان مضطرباً

حائراً محزوناً . وكان يود البكاء بل الفرار . بل ود لو احتجب عن الأنظار فلا يرى بعد ذلك من الإنس أحداً

ثم رآها نجاءة يخرجان من الغاب فيمشيان وئيداً وقد ارتفق كل منهما ذراع صاحبه كما يفعل خطيبا القرى . وقد كان « لوك » يحمل القعب في يده الأخرى . وتعانقا ثانيةً وثالثاً ، ثم انطلقت إلى سبيلها بعد أن ودعته « بطاب ليلك » ونظرت نحو « جان » نظرة ذات معنى . ولم تفكر اليوم أن تهب جان قسطه من اللبن

وجلس الجنديان على كثب مرة أخرى صامتين ساهمين ؛ لا يشف محياهما عما يعتلج في فؤاديهما من مشاعر ، وما يدوّى من فِكَر . كل ذلك والشمس ترسل عليهما شواظاً من نارٍ موقدة . والبقرة تنظر إليهما فتجأر بصوتها من مرعاها البعيد . وفي موعدهما المألوف قاما ليرجعا ...

واختطف « لوك » عسلوجاً آخر من عساليج البندق ، وطفق ينضو عنه قشره . بينما حمل جان زجاجة النبيذ ، وتركها عند الخمار في « بزونس » ثم عبرا الجسر ووقفا في المنتصف يرقبان الماء بضع لحظات كدأبهما كل أحد . وانحنى جان على السياج الحديدي رويداً ... وانحنى ... وانحنى ... كأنما رأى في النهر ما جذب انتباهه . فسأله « لوك » :

— أفتنتوى الشرب من هذا الماء ؟

ولكن لم ينته من قوله حتى جذب جان رأسه . فرسمت ساقاه في الهواء دائرة . وهوى الجندي الصغير في الماء كتلةً من الصخر ، وغاب

وأراد « لوك » أن يصيح ، ولكن حنجرته لم تطاوعه ، فكأنما شلت ، ورأى عن بعد شيئاً يختلج ويضطرب . ثم انحسر الماء عن رأس صاحبه ولكنه غار في لحظة . وبصر هنالك بيد واحدة تندفع إلى السطح ثم تختفي ... وخدق ولم يبصر بعد ذلك شيئاً

ولم يعثر الملاح الذي أسرع إلى المكان بالجثة في ذلك اليوم ، وعاد « لوك » إلى الثكنة وحده يعدو كمن به مس من خبال . وقص الحادث بدمع واكفٍ وصوت مرتجف :

— لقد انحنى إلى الأمام ... انحنى ... انحنى ... كثيراً جداً ... جداً ... جداً ... حتى ... حتى جذبه رأسه ... فـ ... فـ ... فهوى ...

ولم يقدر على أن يفصح أكثر من هذا فقد خنقه البكاء ... آه ! لو كان يعرف !

السيد محمد العزاوي

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين ﴾